﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

[الأعراف: 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حصولُ العِبرةِ لجميع المكلَّفين في مصالح أديانِهم وطاعتِهم

لمّا بيّنَ - تعالى فيما تقدّمَ منَ الآيات - حالَ الكفّارِ الّذين أهلكَهُمُ اللّهُ بالاستئصالِ مُجمَلًا ومُفصَّلًا؛ أتبعَهُ ببيانِ أنّ الغرَضَ من ذكرِ هذه القَصَصِ حُصولُ العِبرةِ لجميع المُكلَّفين في مصالحِ أديانِهم وطاعاتِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهْدِ﴾: (هدي) الهاءُ والدّالُ والحرفُ المعتلُّ أصلان؛ أحدُهما: التّقدُّمُ للإرشاد، والآخرُ بَعثَةٌ لطفٍ. فالأوّلُ قولُهم: هديتُهُ الطّريقَ هِدايَةً؛ أي: تقدَّمتُهُ لأُرشدَهُ. ويُنشعَبُ هذا فيُقال: الهُدى: خلافُ الضّلالةِ، والأصلُ الآخرُ الهَديَّةُ: ما أهدَيتَ من لطفٍ إلى ذي مودَّةٍ[2]. فهَداه: دَلَّه على الطَّريق[3]، والهُدى: الرّشادُ والدّلالةُ، وهَدَيتُهُ الطّريقَ والبيتَ هِدايَةً؛ أي: عرَّفتُه، وهي لغةُ أهلِ الحجازِ، ويُقال: هَداهُ اللّهُ للدّين هدًى؛ فيتعدّى باللّام، وقيل: هَدَيتُهُ إلى الطّريق وإلى الدّار، فيُعدّي الفعلَ بـ(إلى)[4]، فالهدى: الصِّراطُ الّذي دَعا اللّه سبحانه إليه هو طريقُ الحقِّ[5]، والاهتداءُ يختصُّ بما يتحرّاه الإنسانُ على طريق الاختيارِ، والمهتدون: الّذين تحرّوا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (هدى).
(5) ابن سيده، المحكم: (هدي).

هدايتَه، وقبلوها، وعملوا بها[1]، ولغةُ أهلِ الغَور: هَـدَيتُ لك؛ أي: بَيَّنتُ لك، وبها نزلت: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: 128][2]، فهَداهُ لَهُ: دَلَّه عليه، وبَيَّنَه له[3]. وتبيّنُ الوجهة، أو تَبيينُها بالتّقدُّم أو الكشف، والدّلالة عليها، وأغلبُ ما وردَ في القرآن منَ الفعل هو بمعنى التّوجيه إلى سبيل الرّشدِ خاصّةً[4]، وبهذا فمعنى اللّفظة في الآية: أو لم يتبيّنوا، ويرشدوا.

2) ﴿يَرِثُونَ﴾: (ورث) الواو والرّاءُ المكسورةُ والثّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، هي الورثُ، وهو أن يكونَ الشّيءُ لقومٍ، ثمّ يصيرُ إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[5]؛ فالإيراث: الإبقاءُ للشّيء[6]، وأورَثَهُ مالَه؛ أي: تَركه لَهُ[7]، والوارثة والإرث: انتقالُ قُنيةٍ إليك عن غيرك من غير عقدٍ، ولا ما يجري مَجرَى العقد[8]. و(الوارِثُ) صِفةٌ من صِفات الله تعالى، وهو الباقي الدّائِمُ بعدَ فناءِ الخَلق؛ إذ يَفنَى مَن سِواه، فيَرجعُ ما كانَ مِلك العِبادِ إليه وحدَه لا شريكَ له[9].

وحوزُ الإنسانِ ما كان يملكُه آخرُ بعد موتِ هذا الآخر استحقاقًا بالشّرع، وسائرُ ما في القرآن منَ التّركيب عدا ما هو منَ الوراثة بمعنى: حوزُ تركةِ الميّتِ أو قسطٍ منها، فهو بمعنى: أن يؤولَ إليه ما كان بيد غيره بخلافةٍ فيه، أو تقلّبِ حالٍ، أو بمعنى: أن تكونَ العاقبةُ له فيه؛ تشبيهًا بأيلولة الموروث إلى الوراث[10].

ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: يخلفون أهليهم، وتؤولُ إليهم الأرضُ.

3) ﴿نَطْبَعُ﴾: (طبع) الطّاءُ والباءُ والعينُ أصلٌ يدلُّ على نهايةٍ يَنتَهي إليها الشّيءُ حتّى

(1) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(2) الفراهيديّ، العين: (هدي).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (هدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هدى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(6) الفراهيديّ، العين: (ورث).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ورث).
(8) الرّاغب، المفردات: (ورث).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (ورث).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورث).

يُختَمَ عندَها[1]، وأصلُه منَ الطَّبع: وهوَ الوسَخُ الشّديدُ، والصّدأُ يكثرُ على السَّيف[2]، ثُمَّ استُعمِل فيما يُشبِهُ ذلك مِنَ الأوزارِ والآثامِ وغَيرِهما مِنَ المَقابِحِ[3].

والطَّبعُ: الختمُ على الشّيء، وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها[4]، وطَبَعَ اللّهُ على قلبِ الكافِرِ - نعوذ باللّه منه - أي: صوّرَه بصورةٍ ما، وختمَ عليه، وغشّاه، وغطّاهُ، واستوثقَ من ألّا يدخلَهُ شَيءٌ، ومنَعه ألطافَه، فلا يعي وعظًا، ولا يصلُ إليه هدًى ولا نورٌ، ولا يوَفَّقُ لخيرٍ[5].

ولفظُ الطّبعِ في الآية الكريمة من هذا الختم على القلب - والعياذ باللّه - الّذي يمنعُ الإنسانَ ألطافَه فلا يعي وعظًا، ولا يصلُ إليه هدًى ولا نورٌ، ولا يوَفَّقُ لخيرٍ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

التّعجيبُ من حالِ المُمَكَّنينَ في الأرض، وتحذيرهم

الآيةُ الكريمةُ مسوقةٌ مساقَ التّعجيبِ من حال الأمّةِ الحاضرةِ بوصفها الوارثة لجميع الأمم وغيرها، ممَّن آلَت إليهم الأرضُ بعدم الاهتداءِ بما حلَّ بمَن قبلَهم منَ الأمم، والاتّعاظِ بما أصابَهم، وكيفَ غابَ عنهم، ولم يُرشدوا إلى سنن اللّهِ فيهم ؟ مع أنَّ شأنَنا فيهم كشأننا فيمَن سبقوهم، وأنَّهم خاضعون لمشيئتنا لو نشاءُ أهلكناهم بذنوبهم، ومنعناهم ألطافَنا بالختم على قلوبِهم حتّى يعلوها الرّانُ والدّنسُ، فلا يعونَ وعظًا، ولا يُبْصِرونَ هدًى أو نورًا، ولا يوَفّقون إلى خيرٍ، ولا يسمعون سماعَ انتفاعٍ، وإنّما يسمعون فقط ما تقومُ به الحجّةُ عليهم[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(2) الفراهيديّ، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (طبع).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(4) الفراهيديّ، العين: (طبع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(6) اللاّحم، عون الرّحمن: 9/226.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: الاعتبار بقصصِ الأممِ الغابرةِ، وأخبارِهم، ومآلاتِ مصائرِهم، ففي ذلكم تثبيتٌ للمؤمنين، وتحذيرٌ ووعيدٌ للكافرين، وإلى أنَّ مَن أوضحَ اللّهُ له سُبلَ الهدى، وضربَ له الأمثالَ في الهالكين بذنوبهم، وأصرَّ على كفره، وسَدَرَ في غيِّه، ولم يرعوِ، سيطبعُ اللّهُ على قلبه، فيَنبوا سَمعَهُ عن صوت الحقِّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في المطلَع:

عجبٌ أمرُ أمّةٍ لا تتّعظُ بحوادثِ مَن سَبَقوا

الاستفهامُ للإنكار والتّوبيخ، والتّقرير، دخلَ على واو العطف، الّتي عُطِفَت على جملة: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ لاشتراكِ مضمونِ الجملتين في الاستفهام التَّعجبيِّ، فانتقلَ عنِ التّعجيب من حالِ الّذين مضَوا إلى التّعجيب من حال الأمّةِ الحاضرةِ من شدّةِ ضلالتِهم؛ إذ عُدِموا الاهتداءَ والاتّعاظَ بحالِ من قبلهم منَ الأمم، ونسوا أنَّ اللّه قادرٌ على استئصالهم إذا شاءَه[2].

دلالةُ الموصولِ في الآية:

الّـذيـن يـرثـون الأرضَ هـم كـلُّ أمّةٍ خلفَت أمَّةً قبلَها

الموصولُ بمنزلة لام التّعريف العهديّ، وقد يُقصَدُ بالّذين يرثون الأرضَ كلُّ أمّةٍ خلفَت أمّةً قبلَها، فيشمل عادًا وثَمودَ، فقد قال لكلٍّ منهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف: 74]، ولكنّ المشركين منَ العرب يومئذٍ مقصودون في هذا ابتداءً بالموصول بمنزلة لام الجنس[3].

سرُّ إظهارِ الوصف:

لـو تـأمّـلـوا حـالَـهـم بـعـدَ البأسِ لاتّعظوا والتمسوا طريقَ الهداية

أظهرَ – مُسهِبًا في وصفهم – بدل الإضمار، ولم يقُل: (يهدِ لهم)؛ تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف، وإشارةً إلى بلادتهم لعدم البحثِ

(1) مجموعة من الباحثين، التّفسير المحرّر: 6/389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26.

عنِ الأخبار؛ ليعلموا منها ما يضرُّ وما ينفعُ، فلا يكونوا كالبهائم، فإنّهم لو تأمّلوا أحوالَهم وأحوالَ مَن ورثوا أرضَهم وأحوالَ الأرض؛ لكفاهم ذلك في الهداية إلى سواء السّبيل[1].

نكتةُ تعدية الفعل (يهدي) باللّام:

تأكيدُ الاختصاص، وتضمينُ معنيين، وتقويةُ التّعلُّقِ، وإبعادُ شكِّ إثباتِ فائدةِ الهدايةِ لغيرِ المهديِّ

الحكمةُ في تعدية الفعل (يهدي) إلى مفعوله (الّذين) باللّام، وليس بنفسه، أو بالحرف (إلى): أنَّ (الهداية) هي الدّلالةُ على الطّريق الموصل للغاية، وقد تعودُ فائدتُه عليك؛ أي: إنَّك قد هَدَيت غيرَك لصالحك، وقد تكون الهدايةُ، وهي الدّلالة على فعل الخير، لأمرٍ يعودُ على الّذي هَدَى وعلى المَهديّ معًا، لكن إذا كانتِ الهدايةُ لا تعودُ إلّا لك أنت - وهذا ما تؤدّيه اللّام - ففي ذلك دفعُ شبهة المصلحة، والشّكّ في النّيّات، وهي أنسبُ لليقين، ثمّ الإقناع[2]، فاللّام للاختصاص، وتؤدّي معنى تقويةِ تعلُّقِ معنى الفعلِ بالمفعول، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ [لقمان: 14]، وقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: 5].

في التّعدية باللّام تبيينٌ، وتوضيحٌ، وإرشادٌ

وتركيبُ اللّام مع الفعل حدّدَ وجهًا دلاليًّا له بطريق المجازِ، أو التّضمينِ وهو التّبيينُ، والتّوضيحُ، والإرشادُ، والمعنى: ألم نهدِ مبيّنين، موضّحين، مرشدين، أو ألم يهدِ، ويبيّن لهم راشدين؟ واستعمالُ الهدايةِ في مطلق الإرشاد مجازٌ، أو استعارةٌ كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6][3].

وقيل: إنّ تعديةَ فعلِ الهدايةِ باللّام؛ إمّا لتنزيلها منزلةَ اللّام، كأنّه قيل: أغفَلوا، ولم يُفعَلِ الهدايةُ لهم؟ وإمّا لأنّها بمعنى التّبيين، والمفعولُ محذوفٌ، والفاعلُ على التّقديرين هو الجملةُ الشّرطيّةُ؛ أي: أوَلَم يُبَيَّنْ لهم مآلُ أمرِهم[4]؟

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4262.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/25 - 26، والشّهاب، الحاشية: 4/334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/27، وداود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 36.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.

دلالةُ الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

المقصودُ بالأرض عمومُها

الألفُ واللّامُ في الأرض للجنس؛ أي: يرثون أيَّ أرضٍ كانت منازلَ لقومٍ قبلهم، وهي بهذا المعنى اسمُ جنسٍ يصدقُ على شائعٍ متعدِّدٍ، فتعريفُه تعريفُ الجنس، والمعنى: أو لم يهدِ للّذين يرثون أرضًا من بعد أهلها؟

لفظُ (الإرث) بين الحقيقة والمجاز:

الـكـلامُ مـوجَّـهٌ لأهـل مـكّـةَ، أو المـــرادُ مـطـلـقُ الـــخـــلافـــةِ في الأرض

يُطلَقُ الإرثُ مجازًا على مماثلة الحيّ ميّتًا في صفات كانت له من عزٍّ، أو سيادةٍ؛ لأنّه إنْ أُريدَ بالكلام أهلُ مكّةَ؛ فالإرثُ هنا بمعناه المجازيِّ، وإنْ أُريدَ أهلُ مكّةَ والقبائلُ الّتي سكنَت بلادَ الأمم الماضية فهو مُستعمَلٌ لمُطلَقِ الخلافة، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105][1]، وظاهرُه التّسميع لَمن كان في عصر الرّسول ﷺ من مشركي قريش وغيرهم[2]؛ أي: لمّا كان إرثُهم غيرَ مُستغرِقٍ للزّمان أتى بالجارّ، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾[3]، فهو مُؤكِّدٌ لمعنى (الإرث)؛ إذ يُرادُ منه تذكيرُ السّامعين بما كان فيه أهلُ الأرض الموروثة من بُحبوحة العيشِ، ثمّ ما صاروا إليه منَ الهلاكِ الشّاملِ العاجلِ، تصويرًا للموعظة بأعظم صورةٍ، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129][4].

نكتةُ التّعبير بالمصدر المُنسبك:

تحقيقُ مشيئةِ اللهِ لا رادَّ لها إن شاءَ تعالى وأراد

و﴿أَن﴾ المصدريّة في قوله: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ﴾ تدلُّ على التّحقيق؛ لأنّها (أن) المخفّفةُ منَ الثّقيلة، واسمُها ضميرُ الشّأن محذوفٌ، وما بعدها مؤوّلٌ بمصدرٍ مُنسبكٍ من لفظ خبرِها إن كان مفردًا مُشتقًّا، أو منَ الكون إن كان خبرُها جملةً، فموقع ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم﴾ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26 - 27.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/352.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26 - 9/27.

موقع فاعل ﴿يَهْدِ﴾؛ أي: أو لم يتّضح للوارثين إصابتُنا إيّاهم بذنوبهم لو شئنا ذلك[1]، وفي التّعبير بالمصدر المنسبكِ قوّةٌ في الدّلالة على الحدث وتأكيدٌ لتحقّقه، والتّقدير: في أيّ وقتٍ أردنا ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: إصابةً نمحقُهم بها كما فعلْنا بمَن ورثوا أرضَهُم[2].

دلالةُ فعلِ الشّرطِ على الماضي:

﴿لَّوْ﴾ في قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ حرفُ شرطٍ يفيدُ تعليقَ امتناعِ حصولِ جوابه لأجل امتناعِ حصولِ شرطه: في الماضي، أو في المستقبل، وإذ قد كان فعلُ الشّرط هنا مضارعًا كان في معنى الماضي؛ إذ لا يجوز اختلافُ زمني فعلي الشّرط والجواب، وإنّما يخالفُ بينهما في الصّورة لمجرّدِ التّفنّنِ؛ كراهةَ تكريرِ الصّورةِ الواحدةِ، وفي هذا تهديدٌ بأنّ اللّه قد يصيبُهم بذنوبهم في المستقبل؛ إذ لا يصدُّه عن ذلك غالبٌ[3].

لا يصدَّنَّ اللهَ إن شاء عارضٌ عنِ الإصابة بالذّنوب في أيِّ زمن

دلالةُ الباءِ في لفظ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾:

الباءُ في ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ للسّببيّة، وليسَت لتعديةِ فعل ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾[4]، وهي تقوّي دلالةَ أنّ المشيئةَ ليسَت مشيئةَ اللّه سبحانه فقط، بل هي أيضًا مشيئةُ العباد الّذين ميّزهم بالاختيار، ولذلك لم يقُل: (لو نشاء أصبناهم لذنوبهم)؛ وذلك رحمة منه، بل جعل العقابَ بالذّنوب الّتي يختارونها هم[5].

العبادُ مخيّرون، ومشيئاتُهم سببُ عقابهم

دلالةُ الاستئناف بالمضارع:

وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ استئنافٌ من باب

(1) الصّافّي، الجدول في إعراب القرآن: 5/20، ويجوز أن يكون الفاعلُ ضميرًا مستتِرًا يعود على لفظ الجلالة، ويصبح المصدرُ المؤوّلُ مفعولًا به، كما يجوز أن يكون ضميرًا يعودُ على ما يُفهَمُ من سياق الكلام، أي: أو لم يهدِ ما جرى للأمم السّابقة، والمصدرُ المؤوّلُ مفعولٌ.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/27.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4263 - 4264.

العطفِ في الجمل، فهو معطوفٌ على مجموع الجملةِ المصدَّرةِ بأداة الاستفهام[1]؛ أي: العطفُ على أخبار الأمم الماضيةِ والحاضرةِ، والتّقدير: وطبعْنا على قلوبهم، ولكنّه صيغ بهيئة المضارع؛ للدّلالة على استمرار هذا الطّبع وازدياده آنًا فآنًا[2].

طبعُ اللهِ على قلوبهم مستمرٌّ آنًا فآنًا ما استمرّوا على زيغهم

وقد يكون معطوفًا على فعلٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه معنى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، كأنّه قيل: يغفُلون عنِ الهداية، ونطبعُ على قلوبهم، أو على جملة ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾[3]، وقيل: هو عَطفٌ على المعاصي؛ إذِ المرادُ به الاستقبال[4]، أو تجعل (الواو) للاستئناف والجملةُ مستأنفةٌ؛ أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي، فهو استئنافٌ مُنقطِعٌ عمّا قبله؛ لأنّ قولَه: (أصبنا) ماضٍ، و﴿نَطْبَعُ﴾ مستقبل؛ إخبارًا عن وقوع الطّبعِ لا أنّه مُتوَعِّدٌ به، ويبقى التّوعُّدُ بما سبق ذكره من عذابٍ كالصّيحة، والرّجفة، والغرق ونحوه[5]، والغايةُ إثباتُ حصولِ الطّبعِ على قلوبهم؛ أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم، ونختِمُ عليها، بسبب اختيارهم الكفرَ على الإيمان[6]. وقيل: المرادُ الإصابةُ إمّا بالإهلاك وإمّا بالطّبع؛ أي: إن لم نهلكْهم بالعقاب؛ نطبعْ على قلوبهم، فهُم لا يَسمَعونَ؛ وذلك لأنّ الإهلاكَ لا يجتمعُ مع الطّبعِ على القلب؛ فإنّه إذا أهلكَه يستحيلُ أن يطبعَ على قلبه[7]، وهذا من بديع سعةِ احتمالاتِ التّركيب القرآنيّ، ومآلاتِه في تنوّع المعاني، وتعدّدِ الدّلالات الممكنة فهمًا لسياق الآية المباركة.

حصولُ الطَّبعِ حتميُّ الوقوعِ، لا أنّه وعدٌ على وجه التّهديد

ومنعَ جَمعٌ منَ المفسرين عطفَ جملة: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134 - 135.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/500.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/500.
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/390، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134 - 135، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/338.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/152، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.

وجـــهُ مـنـعِ العطفِ إفضاؤه إلى نفي الطّبع عنهم فَهُم لا يَسمَعونَ سماعَ تفهّمٍ واعتبارٍ

جملة ﴿أَصَبْنَاهُم﴾؛ لأنّه في سياقه جواب ﴿لَّوْ﴾ لإفضائه إلى نفي الطّبع عنهم، فهُم لا يَسمَعونَ سماعَ تفهُّمٍ واعتبارٍ[1]، أو أنَّ هؤلاء الّذين ورثوا الأرضَ من بعد أهلِها قد طبعَ على قلوبهم، فلذلك لم تجدْ فيهم دعوةَ محمّدٍ ﷺ منذ بُعثَ إلى زمن نزولِ هذه السّورة، فلو كان جوابًا لـ ﴿لَّوْ﴾ لصار الطّبعُ على قلوبهم[2]، وجعل له بعضُهم وجهًا؛ بأنّ كونه مطبوعًا عليه إنّما يحصلُ حالَ استمراره وثباته على الكفر؛ فهو يكفر أوّلًا، ثمّ يصيرُ مطبوعًا عليه في الكفر، فلم يكن هذا منافيًا لصحّة العطف[3]، أو أنَّ الكلامَ في الّذين يرثون الأرضَ في العصر الحاليّ، أو المستقبل على الإطلاق، وليس في قومٍ معينين طبعَ اللّه على قلوبهم بالفعل[4]، فلمّا كان هذا تخويفًا للمَوجودين بعد المُهلَكين، ومنهم قريشٌ وسائرُ العربِ الّذين يُخاطَبون بهذا القرآنِ، فكأنّ المَخوُفَ به لم يقعْ بعدُ، عَطَفَ على (أصبنا) قولَه: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: بإزالة عقولِهم حتّى يكونوا كالبهائم، ولِذلك سَبَّبَ عنه قولَه: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: سماعَ فهمٍ[5].

بلاغةُ المجازِ في لفظ الإصابة:

الإصابةُ بالذّنوب إهلاكٌ لهم

وقوله: ﴿أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بجزاء ذنوبهم، وسيّئاتهم، أو بسبب ذنوبهم، وقيل: يجوز أن يُضمّنَ أصَبناهُم معنى أهلكناهم، فلا حاجةَ إلى تقدير المضاف، وهو من مجاز الإضمارِ أو التّضمين[6]، ويكون المعنى: أصبناهم مُهلكين بذنوبهم.

سرُّ الالتفاتِ بين لفظي (الإصابة)، و(الطّبع):

سـرعـةُ الـهـلاكِ واستمرارُ الطّبعِ يـنـاسـبُ حـالـةَ كفرِهم

عبّر عن الإصابة بالماضي إشارةً إلى سرعة الإهلاك مع كونه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/25 - 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/153.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/27.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353، والآلوسي، روح المعاني: 3/207.

شيئًا واحدًا غير مُتجزئ، ثمّ التفتَ مُعبِّرًا عنِ الطّبع بالمضارع؛ للدّلالة على استمرار هذا الطّبع وازدياده، وإيماءً إلى التّجدّدِ، بحيث لا يمرُّ زمنٌ إلّا كانوا فيه في طبعٍ جديدٍ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الطّبع):

نُـقِـشَ الـفسادُ على قلوبهم فلا تقبلُ معه الخيرَ والعملَ الصّالحَ

نطبعُ استعارة من طبعِ السّكةِ ونقشِها بصورةٍ، أو كتابةٍ لا تقبلُ غيرَها[2]، ولا يُستعمَلُ الطّبعُ على القلوب إلّا في الشّرّ، والمرادُ به أنّها وصلَت منَ الفساد إلى حالةٍ لا تقبلُ معها خيرًا[3]، كالطّبع الّذي يفعلُه الصّانعُ بالخاتم أو الختم على الشّيء المطبوع، والمرادُ به هنا أنَّ اللّه تعالى جعل على قلوب المكذّبين طبعًا يمنعُهم من فهمِ الحقِّ وقَبولِه، وأنَّ هذا الطّبعَ هو نتيجةُ ما كانوا يكسبون من تكذيبٍ وإصرارٍ على الضّلال. وجملة (على قلوبهم) للاستعلاء، وكأنّه يغطّيها مُستوعِبًا إيّاها.

سرُّ وصلِ جملة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾:

مَن يصيبُهُ اللهُ بذنبه، ويختِمْ عـلى قـلـبـه؛ يُعاقَبْ بتبلُّدِ الإحساس

جملة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ معطوفةٌ بالفاء على (نطبع)، مُتفَرِّعَةً عليه[4]، وهي جوابُ ﴿لَّوْ﴾؛ أي: صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم، والطَّبْعِ على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم مَن أرسلَه اللّهُ إليهم منَ الوعظ والإعذار والإنذار سماعَ تفقّهٍ وتدبّرٍ واتّعاظٍ[5].

نكتةُ التّعبيرِ عنِ السّماع بالمضارع:

فـعـلُ عـدمِ السّماعِ ملازمٌ لـهـم، مُتجدِّدٌ فيهم كلَّ زمنٍ، وذلـكـم طبعُ المُكابر

عبّر عنِ السّماع بالمضارع المنفيّ بـ (لا)؛ دلالةً على تجدّد الفعلِ فيهم مرّةً بعد مرّةٍ، وأنّ عدمَ السّمع مُستغرِقٌ الحال والاستقبال. ونفيُ السَّماع مَعْناهُ: نفيُ القبولِ والاتّعاظِ المترتِّبِ على وجود السَّماعِ، جعلَ انتفاءَ فائدتِه انتفاءً له[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/27.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/260.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.

علّةُ إيثارِ لفظ السّمع على العقل:

المـرادُ بالسّمع النّـافـع منه وليس إطلاقَهُ

وإنّما قال: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ولم يقُل: (لا يعقلون)؛ لأنّ المرادَ هنا السّمعُ النّافعُ لا مطلقُ السّمع[1]، أو المرادَ بالسّماع فهمُ مغزى المسموعات لا استكاك الآذان، بقرينةِ قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2]، والّذي يتأمّلُ في الآيات السّابقة يراها تحذِّر النّاسَ بأساليبَ متنوّعةٍ حكيمةٍ منَ الغفلة عنِ العظات والعِبر، وتحضُّهم على التّخلصِ منَ الأمن الكاذب، والشّهوات المُردية، والمتع الزّائلة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّبع، والختم، والنّقش، والرّين، والإقفال:

الطّبعُ: أعمُّ منَ الختم وأخصُّ منَ النّقش[4]، والرَّينُ أيسرُ مِنَ الطَّبع، والطَّبعُ أيسرُ مِنَ الإقفال، والإقفالُ أشدُّ ذلك كلِّه[5].

القلب، والفؤاد:

إصـابـةُ القـلـبِ الـرّقـيـقِ منتهى العذاب

القلبُ أخصُّ منَ الفؤاد في الاستعمال؛ لأنّه معنى منَ المعاني يتعلَّقُ به، ويشهدُ له قولُ النّبيِّ ﷺ: «أتاكُم أهل اليَمن، هم أرَقُّ قُلوبًا، وألْيَنُ أفئِدَةً»[6]، فوصَفَ القُلوبَ بالرّقّةِ والأفئدةَ باللّين، وكأنَّ القلبَ أخَصُّ في الاستعمال؛ ولذلك قالوا: أصبتَ حَبَّةَ قلبِه وسويداءَ قلبِه[7]، ولخصوص القلب أوثرَ في الآية.

(1) ابن عرفة تفسير ابن عرفة: 2/239.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/338.
(4) الرّاغب، المفردات: (طبع).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(6) أحمد بن حنبل، المسند: 28/625.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 9/143، والزّبيديّ، تاج العروس: 4/69.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»